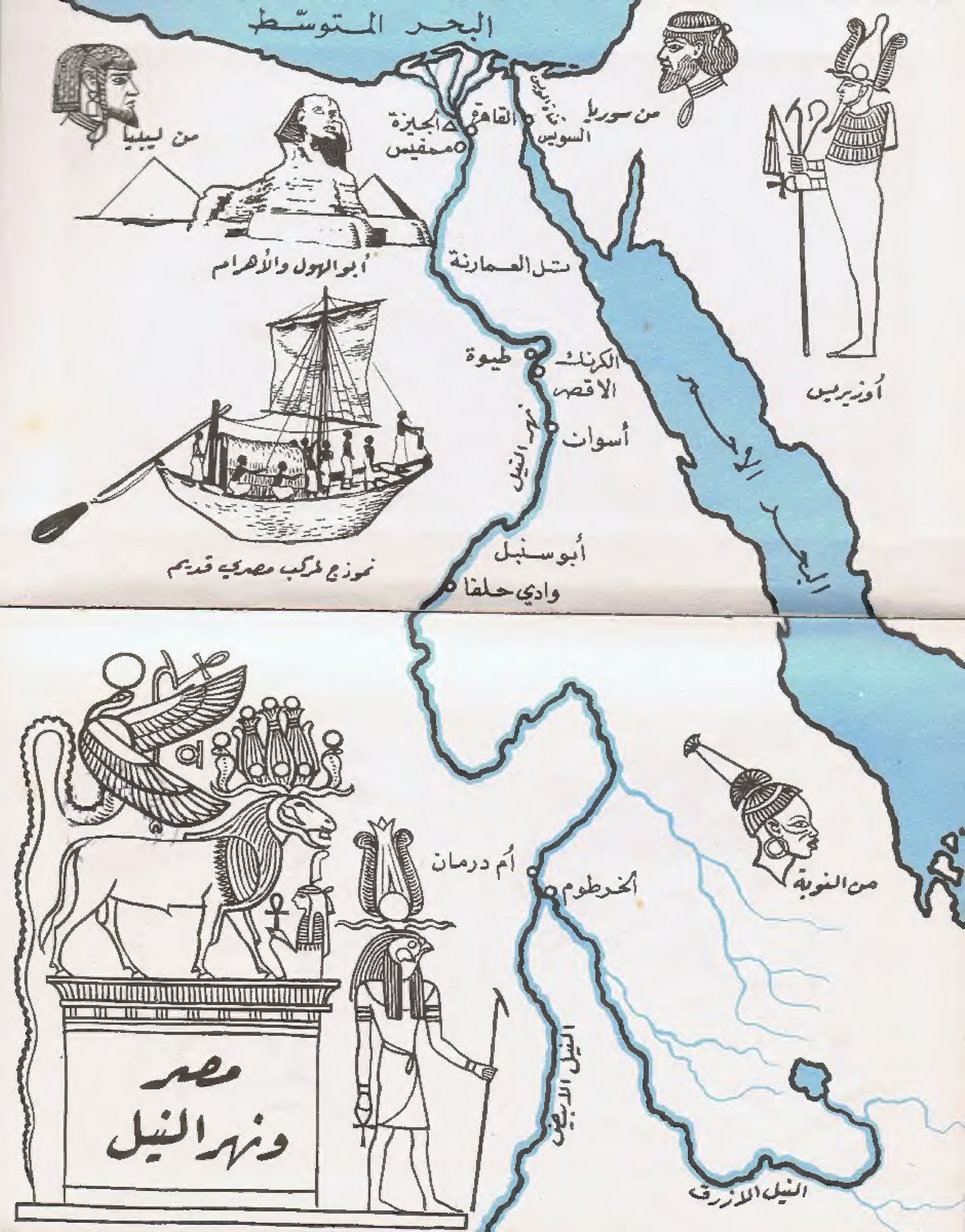
# كليوپاترا ومِصرُ القديمة

سلسلة ليديبرد
"في المغامرات التاريخية"




مصر
ونهر النيل
البحر المتوسط
من ليبيا
الجيزة
ممفيس
القاهرة
السويس
من سوريا
أبو الهول والأهرام
تل العمارنة
أوزيريس
طيوة
الكرنك
الأقصر
أسوان
نهر النيل
نموذج لمركب مصري قديم
أبو سنبل
وادي حلفا
أم درمان
الخرطوم
من النوبة
النيل الأبيض
النيل الأزرق

هٰذا الكِتابُ يُعْطِينا لَمْحَةً عَنْ مِصْرَ القَديمَةِ وحَضارَتِها العَريقَةِ حَتَّى عَهْدِ كِلْيُوباتْرا .

وَمَنْ مِنَّا لَمْ يَسْمَعْ بِهٰذا الاَسْمِ الشَّهيرِ ؟



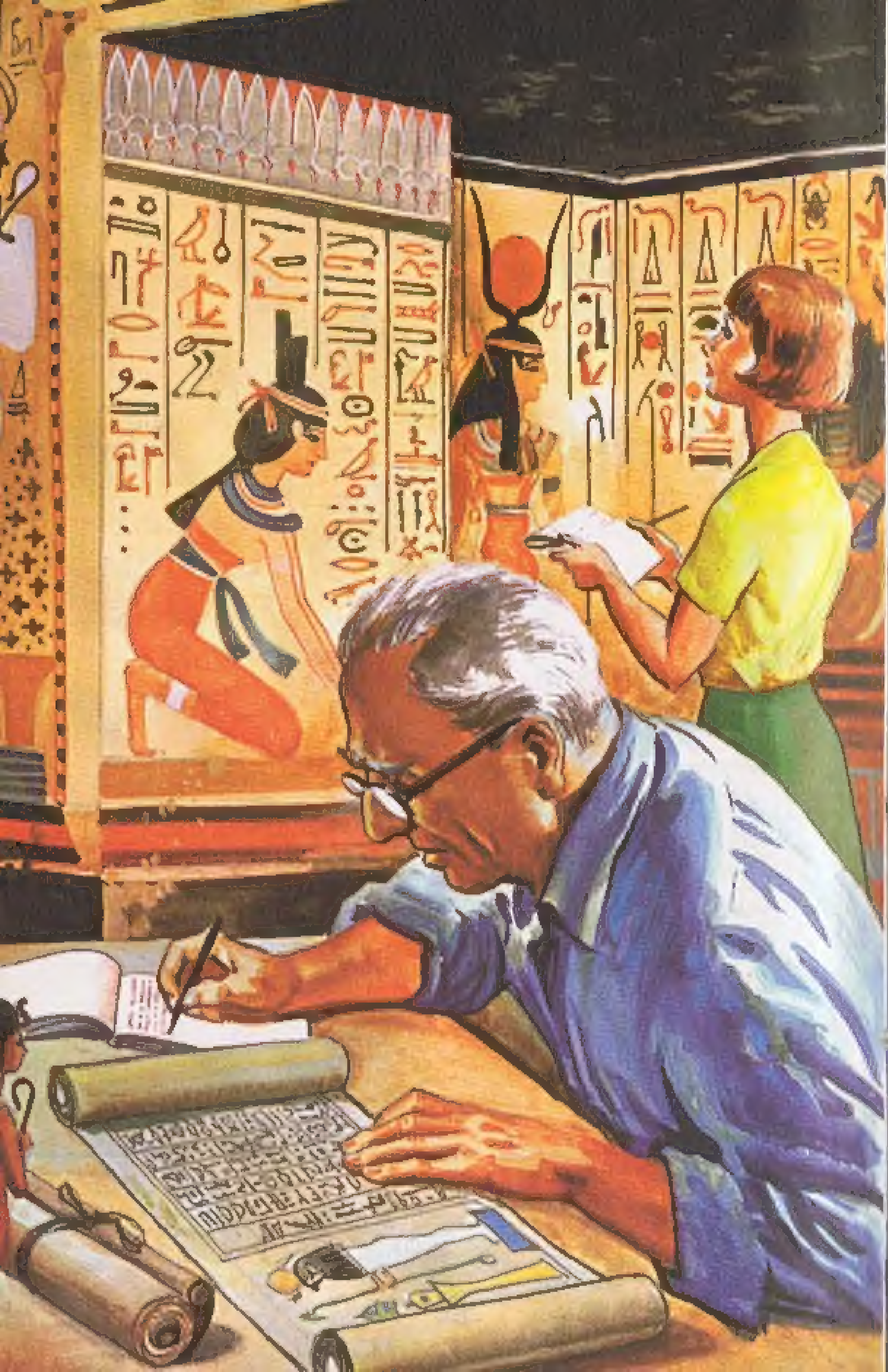
طُبِع في انكلترا © الطَبعَة الأولى ١٩٧٤

# كليوپاترا
# وَمِصْرُ القَديمَة

تأليف : ل . دوغارد پيتش
أعادَ حكايتها : رجا حوراني
وضع الرسوم : جون كيني



الناشرون :
مكتبة لبنان — بيروت
ليديبرد بوك ليمتد — لافبورو
لونغمان — هارلو



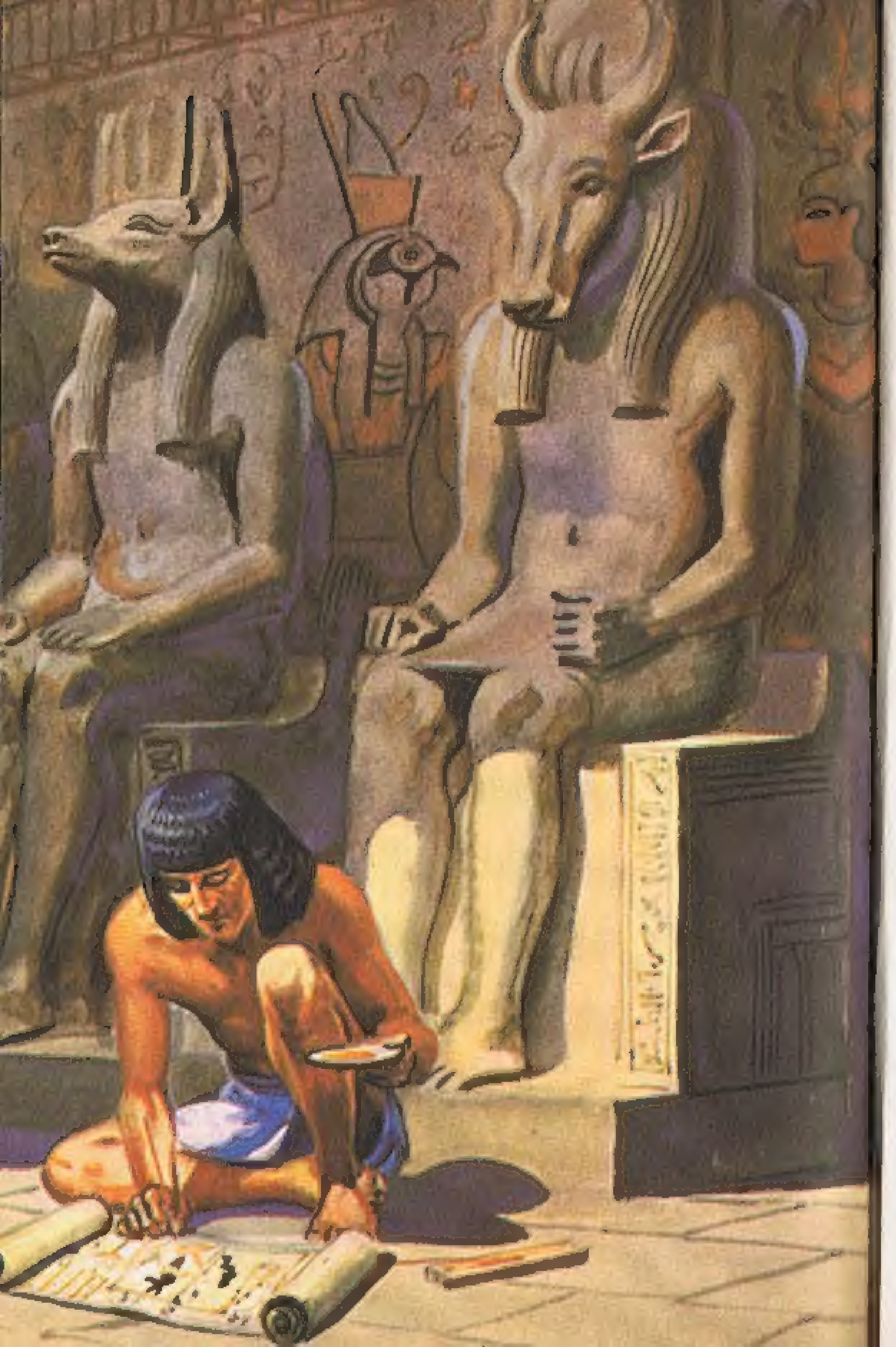
# كِلْيُوباترا ومِصْرُ القَدِيمَةُ

مُنْذُ خَمْسَةِ آلافِ سَنَةٍ كانَ سُكّانُ أُورُوبا وانكلْترا يَعِيشُونَ في أَوْضاعٍ لا تَخْتَلِفُ عَنْ أَوْضاعِ إِنْسانِ العَصْرِ الحَجَرِيِّ ، الذي تَقْرَأُ عَنْهُ في كُتُبِ التّارِيخِ القَدِيمِ . كانُوا يَعِيشُونَ في الكُهُوفِ ويَلْبَسُونَ جُلُودَ الحَيَواناتِ التي يَصْطادُونَها لِطَعامِهِمْ بِأَحْجارِ الصَّوّانِ المُحَدَّدَةِ الأَطْرافِ .

في نَفْسِ هٰذا العَصْرِ ، وفي مِصْرَ عَلَى ضِفافِ النِّيلِ ، كانَ أُناسٌ يَسْكُنُونَ مُدُنًا عَظِيمَةً ، ويَبْنُونَ هَياكِلَ فَخْمَةً ، ويَلْبَسُونَ الحَرائِرَ الثَّمِينَةَ . ويَتَقَلَّدُونَ الحُلَى والجَواهِرَ . كانَ التُّجّارُ في مَخازِنِهِمْ . والجُنْدُ عَلَى صَهَواتِ خُيُولِهِمْ ، والمُحامُونَ في مَحاكِمِ العَدْلِ .

هكذا كانَ المِصْرِيُّونَ . ونَحْنُ نَعْرِفُ الكَثِيرَ عَنْهُمْ ؛ لِأَنَّ الأَثَرِيِّينَ وَجَدُوا في مِلَفّاتِ البَرْدِيِّ وعَلَى جُدْرانِ المَقابِرِ صُوَرًا وكِتاباتٍ تَصِفُ حَياتَهُمْ ومَنازِلَهُمْ .

كانَتْ لِلْمِصْرِيِّينَ طَرِيقَةٌ فَذَّةٌ في الكِتابَةِ ، تُدْعَى الهِيرُوغْلِيفِيَّةَ . وهِيَ تَعْتَمِدُ عَلَى الرَّسْمِ . وقَدْ بَقِيَتْ هذِهِ الكِتابَةُ لُغْزًا مُدَّةً طَوِيلَةً بِحَيْثُ لَمْ يَتَمَكَّنْ عُلَماءُ الآثارِ أَنْفُسُهُمْ مِنْ فَكِّ رُمُوزِها . وذاتَ يَوْمٍ عَثَرَ عالِمٌ فَرَنْسِيٌّ عَلَى حَجَرٍ نُقِشَتْ عَلَيْهِ نَفْسُ الكِتابَةِ بِاللُّغَتَيْنِ اليُونانِيَّةِ والهِيرُوغْلِيفِيَّةِ . وكانَ هذا العالِمُ يَعْرِفُ اللُّغَةَ اليُونانِيَّةَ ، فَتَمَكَّنَ مِنْ فَكِّ رُمُوزِ كِتابَةِ الصُّوَرِ . هذا الحَجَرُ يُدْعَى حَجَرَ رَشِيدَ نِسْبَةً إِلَى المَكانِ الّذي وُجِدَ فِيهِ . وكانَ هذا الاكْتِشافُ فاتِحَةَ قُدْرَتِنا عَلَى قِراءَةِ ما دَوَّنَهُ المِصْرِيُّونَ القُدَماءُ .



كانَ الكَهَنَةُ يَتَوَلَّوْنَ الكِتابَةَ . ولَمّا كانَ الوَرَقُ غَيْرَ مَعْرُوفٍ آنَذاكَ . فَقَدِ ٱسْتَعْمَلُوا ساقَ النَّباتِ المُسَمَّى بالبَرْدِيِّ ومِنْهُ اشْتُقَّتْ كَلِمَةُ وَرَق بالإنْكِليزِيَّةِ . كانُوا يُقَطِّعُونَ ساقَ النَّباتِ هذا قِدَدًا رَفيعَةً مُسْتَطِيلَةً تُوْضَعُ جَنْبًا إلَى جَنْبٍ طُولًا ، ثُمَّ تُوْضَعُ فَوْقَها قِدَدٌ أُخْرَى عَرْضًا . ويَحيكُونَها كَما تُحاكُ الحَصِيرُ ، ثُمَّ يَنْقَعُونَها فِي الماءِ إلَى أَنْ تَتَماسَكَ أَجْزاؤُها . ثُمَّ يَدُقُّونَها بِمِطْرَقَةٍ عَلَى حَجَرٍ أَمْلَسَ . وبَعْدَ أَنْ تَنْشَفَ بالشَّمْسِ تُدْلَكُ بِقِطْعَةِ عاجٍ دَلْكًا خَفِيفًا ، إلَى أَنْ تُصْبِحَ ناعِمَةً وجاهِزَةً لِلْكِتابَةِ .

وكَثِيرًا ما كانَتْ صَفائِحُ البَرْدِيِّ يُلْصَقُ بَعْضُها بِبَعْضٍ لِتُؤَلِّفَ لَفّاتٍ طَوِيلَةً عُرِفَتْ بِلَفّاتِ البَرْدِيِّ . ولَمْ تَكُنْ تُجْمَعُ وتُجَلَّدُ كُتُبًا كَما هِيَ الحالُ الآنَ ، بَلْ كانَتْ تُلَفُّ مِنْ طَرَفَيْها عَلَى أُسْطُوانَتَيْنِ مِنَ الخَشَبِ ، وعِنْدَ قِراءَتِها تُفْرَدُ عَنْ أُسْطُوانَةٍ لِتَلْتَفَّ عَلَى أُخْتِها فِي الطَّرَفِ الآخَرِ . ولا شَكَّ فِي أَنَّها كانَتْ طَرِيقَةً أَصْعَبَ كَثِيرًا مِنْ تَقْلِيبِ صَفَحاتِ كِتابٍ .

كانَ الكَهَنَةُ يَسْتَعْمِلُونَ حِبْرًا مُلَوَّنًا وأَقْلامًا مَصْنُوعَةً مِنَ العُشْبِ أَوِ القَشِّ . وتَدُلُّ بَعْضُ مِلَفّاتِ البَرْدِيِّ الَّتِي عُثِرَ عَلَيْها ، عَلَى ذَوْقٍ فَنِّيٍّ فِي الرَّسْمِ والتَّلْوِينِ .

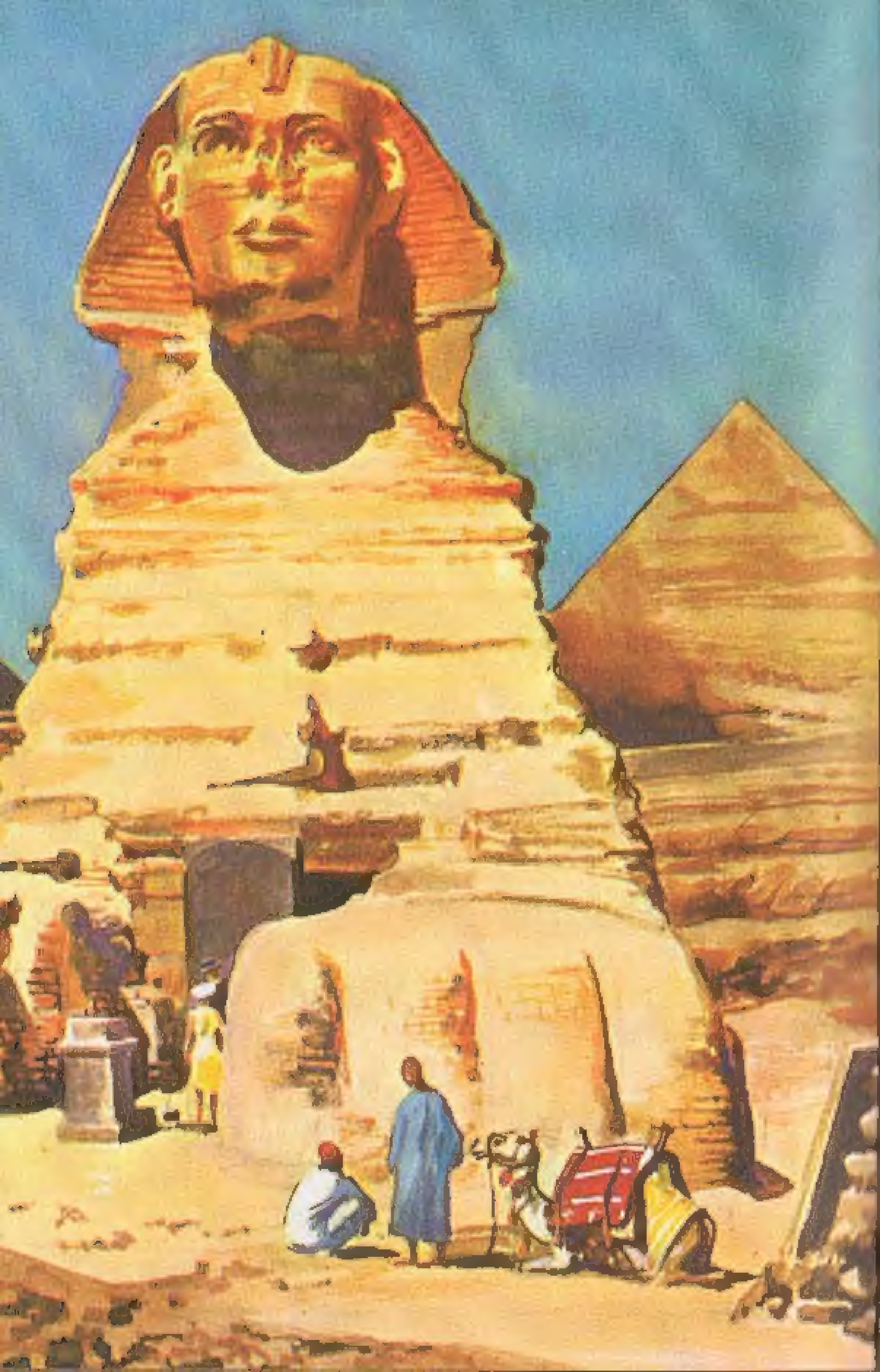


كانَ المِصْرِيُّونَ بَنّائِينَ رائِعِينَ . فقَبْلَ أنْ يَعْرِفَ الأُورُوبِيُّونَ البِناءَ بالحَجَرِ ، أَقامَ المِصْرِيُّونَ هياكِلَ عَظِيمَةً تَكْرِيمًا لِآلِهَتِهِمُ المُتَعَدِّدَةِ . ولا تَزالُ بَعْضُ هذِهِ الهَياكِلِ قائِمَةً في مِصْرَ كَما نَراها الآنَ في الكَرْنَكِ ، حَيْثُ تَبْدُو قاعَةُ الأَعْمِدَةِ الكُبْرَى الَّتي شُيِّدَتْ مُنْذُ آلافِ السِّنِينَ .

وقَدْ نَحَتَ المِصْرِيُّونَ تَماثِيلَ لِحُكّامِهِمُ الفَراعِنَةِ . وقَدْ وُجِدَ قُرْبَ مَدِينَةِ طِيْبَة تِمْثالانِ كَبِيرانِ لِفِرْعَوْنٍ اسْمُهُ أَمِنْحُوتِب . وفي العُصُورِ القَدِيمَةِ ، عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ ، كانَتْ تُسْمَعُ أَلْحانٌ مُوسِيقِيَّةٌ مَصْدَرُها أَحَدُ هذَيْنِ التِّمْثالَيْنِ . فكانَ النّاسُ يَظُنُّونَ أَنَّ المُوسِيقَى هِيَ صَوْتُ التِّمْثالِ تَحِيَّةً لِلشَّمْسِ .

ويَرَى المَرْءُ في جَميعِ أَنْحاءِ مِصْرَ تَماثِيلَ ورُسُومًا عَلَى جُدْرانِ الهَياكِلِ تُمَثِّلُ مُخْتَلِفَ الآلِهَةِ ، الَّتي كانَ بَعْضُها غَرِيبًا جِدًّا ، وأَحَدُها لَهُ جِسْمُ رَجُلٍ ورَأْسُ صَقْرٍ . وكانَ يُظَنُّ أَنَّـهُ ابنُ الإلهِ أُوزِيرِيسَ ، والإلَهَةِ إيزِيس .

كانَ أُوزِيرِيسُ إلهَ الشَّمْسِ ، ورَئِيسَ جَميعِ الآلِهَةِ . وقَدْ رَسَمَهُ المِصْرِيُّونَ عَلَى ظَهْرِ سَفِينَةٍ تَسِيرُ عَبْرَ الفَضاءِ ، كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الشَّرْقِ إلى الغَرْبِ ، ناشِرَةً النُّورَ والحَياةَ لِأَهْلِ النِّيلِ .



إنَّ الأَهْرامَ وأَبا الهَوْلِ أَشْهَرُ آثارِ مِصْرَ القَديمَةِ ، وهِيَ قائِمَةٌ في الجيزَةِ قُرْبَ القاهِرَةِ .

والهَرَمُ الكَبيرُ هُوَ بِناءٌ راسِخٌ ، مُكَوَّنٌ مِنْ كُتَلٍ حَجَرِيَّةٍ ضَخْمَةٍ ، تُغَطِّي مِساحَتُهُ ثَلاثَةَ عَشَرَ فَدّانًا ، وقاعِدَتُهُ مُرَبَّعَةٌ ، وقَدْ ضُبِطَتْ جَوانِبُهُ الأَرْبَعَةُ بِدِقَّةٍ ، بِحَيْثُ لا يَخْتَلِفُ طُولُ أَحَدِها عَنِ الآخَرِ بِأَكْثَرَ مِنْ سنتيمترين ، تَلْتَقِي كُلُّها عِنْدَ نُقْطَةٍ تُشَكِّلُ رَأْسَ الهَرَمِ .

لَقَدْ بَنَى هذا الهَرَمَ فِرْعَوْنٌ اسْمُهُ خُوفُو . وقَدْ حَكَمَ مِصْرَ مُنْذُ خَمْسَةِ آلافِ سَنَةٍ . وفي مَكانٍ بَعيدٍ داخِلَ الهَرَمِ ، تُوجَدُ الغُرْفَةُ الَّتي دُفِنَ فيها ، والَّتي يُوصَلُ إِلَيْها بِواسِطَةِ مَمَرٍّ طَويلٍ ضَيِّقٍ . لَقَدِ اسْتَغْرَقَ بِناءُ هذا الهَرَمِ عِشْرينَ سَنَةً ، اسْتُخْدِمَ خِلالَها أُلوفُ الرِّجالِ ، الَّذينَ كانُوا يَقْتَلِعونَ الحِجارَةَ مِنْ مَقالِعِها ، ويَجُرُّونَها عَلَى عَرَباتٍ لِبِناءِ هذا القَبْرِ العَظيمِ .

وهُنالِكَ أَبُو الهَوْلِ ، وهُوَ لا يَقِلُّ شُهْرَةً عَنِ الهَرَمِ الكَبيرِ . ولَهُ جِسْمُ أَسَدٍ ورَأْسُ إِنْسانٍ ، وهُوَ قائِمٌ بِالقُرْبِ مِنَ الهَرَمِ الكَبيرِ ، وطُولُهُ حَوالَى ٥٧ مِتْرًا وهُوَ مَنْحُوتٌ مِنْ صَخْرٍ قاسٍ . ويُرَجَّحُ أَنَّهُ كانَ مَوْجُودًا في قاعِدَتِهِ حينَما بُنِيَ الهَرَمُ الكَبيرُ . عَلَى أَنَّ بَعْضَ عُلَماءِ الآثارِ المِصْرِيَّةِ يَعْتَقِدونَ أَنَّهُ نُحِتَ في ذاتِ الوَقْتِ الَّذي بُنِيَ فيهِ الهَرَمُ . وقَدْ بَلَغَ مِنْ ضَخامَتِهِ . أَنَّ هَيْكَلًا بُنِيَ في الفُسْحَةِ الَّتي تَفْصِلُ بَيْنَ كَفَّيْهِ .



لَقَدْ ذَكَرْنا أَنَّ الأَهْرامَ بُنِيَتْ بِعِنايَةٍ فائِقَةٍ . فالبَنّاؤونَ المَهَرَةُ لَمْ يَكونوا دَقيقِينَ جِدًّا في أَخْذِ القِياساتِ بالنِّسْبَةِ إلى حَجْمِ الحِجارَةِ فَحَسْبُ . بَلْ كانُوا دَقيقِينَ أَيْضًا بالنِّسْبَةِ إلى ما يَتَّصِلُ بِزاوِيَةِ انْحِدارِ جَوانِبِ الهَرَمِ . وفي الرَّسْمِ المُقابِلِ نَرَى أَحَدَ هؤلاءِ البَنّائِينَ يَقيسُ كُتْلَةً حَجَرِيَّةً بِخَيْطٍ .

يَقَعُ مَقْلَعُ تِلْكَ الكُتَلِ الحَجَرِيَّةِ في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ النِّيلِ . وقَدْ بُذِلَ جُهْدٌ شاقٌّ جِدًّا لِنَقْلِها . ويُرَجَّحُ أَنَّ العُمّالَ اسْتَعْمَلُوا رافِعاتٍ طَوِيلَةً مِنْ خَشَبٍ صُلْبٍ ، لِيَرْفَعُوا تِلْكَ الكُتَلَ . ويَضَعُوا تَحْتَها بَكَراتٍ لِيَسْهُلَ جَرُّها . كانَ مِئاتُ الرِّجالِ يَعْمَلُونَ في جَرِّ هذِهِ الكُتَلِ بَعْدَ رَبْطِها بِحِبالٍ طَوِيلَةٍ مَصْنُوعَةٍ مِنْ جِلْدٍ مَفْتُولٍ . وكانَتْ عَمَلِيَّةُ النَّقْلِ هذِهِ بَطِيئَةً جِدًّا .

لَقَدْ وُجِدَتْ في قَبْرِ حاكِمٍ إقْلِيمِيٍّ اسْمُهُ زُوتْ حُوتَبْ صُورَةُ تِمْثالٍ كَبِيرٍ مَنْقُولٍ بِهذِهِ الطَّرِيقَةِ . وقَدْ وَقَفَ عَلَى التِّمْثالِ رَجُلٌ يُصَفِّقُ بِيَدَيْهِ إشارَةً لِلْعُمّالِ كَيْ يَعْمَلُوا بانْسِجامٍ ويَجُرُّوا التِّمْثالَ دُفْعَةً واحِدَةً .

كانَتِ الحِجارَةُ كُلُّها تُشَكَّلُ بِأَزامِيلَ نُحاسِيَّةٍ ، اسْتُبْدِلَتْ بِها فِيما بَعْدُ آلاتٌ بُرونْزِيَّةٌ وحَدِيدِيَّةٌ . لَمْ يَكُنْ عِنْدَ المِصْرِيِّينَ رافِعاتٌ ومُحَرِّكاتٌ كَبِيرَةٌ كالَّتي عِنْدَنا اليَوْمَ . ورَغْمَ هذا فإنَّ بِناءَهُمْ بِوَسائِلِهِمُ البَسِيطَةِ هَرَمًا بِحَجْمِ هَرَمِ خُوفُو هُوَ عَمَلٌ كَبِيرٌ خالِدٌ .



كانَ حُكّامُ مِصْرَ القَديمَةِ يَنْتَمونَ إِلى عِدَّةِ سُلالاتٍ . بَعْضُ هذِهِ السُّلالاتِ ضَمَّ حُكّامًا عَديدينَ يَنْحَدِرونَ مِنَ الأُسْرَةِ نَفْسِها إِذْ كانَ يَحْدُثُ أَنْ يَموتَ الفِرْعَوْنُ دونَ وَلَدٍ فَيَخْلُفُهُ حاكِمٌ مِنَ الأُسْرَةِ ويُؤَسِّسُ سُلالَةً حاكِمَةً جَديدَةً . وأَحْيانًا كانَ يَتَوَلّى الحُكْمَ حاكِمٌ غازٍ مِنْ جِنْسٍ آخَرَ فَيُؤَسِّسُ سُلالَةً حاكِمَةً جَديدَةً وأُسْرَةً حاكِمَةً جَديدَةً .

كانَتِ الأُسْرَتانِ الثّامِنَةَ عَشْرَةَ ، والتّاسِعَةَ عَشْرَةَ أَعْظَمَ هذِهِ الأُسَرِ إِطْلاقًا ، وقَدِ امْتَدَّ حُكْمُ فَراعِنَتِهِما نَحْوَ أَرْبَعمِئَةِ سَنَةٍ ( ١٦٥٠–١٢٨٠ق.م) – وهِيَ قَدْرُ الفَتْرَةِ المُمْتَدَّةِ مِنْ عَصْرِ المَلِكَةِ أَليصابات الأُولى إِلى يَوْمِنا هذا – وقَدْ عُرِفَتْ بالأَمْبراطورِيَّةِ الجَديدَةِ . وكانَ حُكْمُ أَوَّلِ فِرْعَوْنٍ مِنَ الأُسْرَةِ الثّامِنَةَ عَشْرَةَ بِدايَةَ عَصْرٍ جَديدٍ لِمِصْرَ ، إِذْ إِنَّهُ هُوَ الَّذي طَرَدَ الأَجانِبَ الَّذينَ حَكَموا البِلادَ مُدَّةَ أَرْبَعمِئَةٍ وخَمْسينَ سَنَةً .

كانَ تَحوتْمُسُ الثّالِثُ أَعْظَمَ هؤُلاءِ الفَراعِنَةِ ، وقَدْ بَسَطَ سُلْطانَهُ عَلَى البُلْدانِ المُجاوِرَةِ لِمِصْرَ ، فامْتَدَّ مِنَ الصَّحْراءِ اللّيبِيَّةِ غَرْبًا إِلى نَهْرِ دِجْلَةَ شَرْقًا . وكَثيرًا ما نُشاهِدُ عَلَى الجُدْرانِ صُوَرًا زَيْتِيَّةً تُمَثِّلُ تَحوتْمُسَ الثّالِثَ في مَرْكَبَتِهِ ، ساحِقًا أَعْداءَهُ ومُنْتَصِرًا عَلَيْهِمْ . وبِأَمْرٍ مِنْهُ ، وتَخْليدًا لانْتِصاراتِهِ . نُحِتَتِ المِسَلَّةُ الصَّوّانِيَّةُ المُسَمّاةُ – خَطَأً – بِمِسَلَّةِ كليوباترا . وهِيَ قائِمَةٌ حالِيًّا في أَحَدِ مَيادينِ لَنْدَنَ .



لَقَدْ كانَ كَثيرٌ مِنْ فَراعِنَةِ هاتَيْنِ الأُسْرَتَيْنِ جُنودًا عُظَماءَ وقادَةً فاتِحينَ . ويُظْهِرُ الرَّسْمُ المُقابِلُ مَشْهَدًا لِأَحَدِ أولَئِكَ القادَةِ عائِدًا إلى مِصْرَ بَعْدَ حَمْلَةٍ مُظَفَّرَةٍ .

وعلى جُدْرانِ قُبورِ أولَئِكَ الفَراعِنَةِ نَرى صُوَرًا لِتِلْكَ الانْتِصاراتِ . حَيْثُ نَرى مَرْكَبَةَ الظَّافِرِ وخَلْفَها مِئاتُ الأَسْرى الَّذينَ يَنْتَظِرونَ مَصيرَهُمْ : فَإِمّا يُلاقونَ المَوْتَ أَوْ يُباعونَ كالعَبيدِ . ومِمّا لا شَكَّ فيهِ أَنَّ كَثيرينَ مِنْهُمْ أُجْبِروا على العَمَلِ مَدى الحَياةِ في بِناءِ هَياكِلَ ومَدافِنَ لِأَسْيادِهِمْ .

كانَ في الأُسْرَةِ التّاسِعَةَ عَشْرَةَ فِرْعَوْنانِ عَظيمانِ ، أَحَدُهُما سيتي الأَوَّلُ ، وهُوَ الَّذي بَنى قاعَةَ العَواميدِ في الكَرْنَكِ ، ونَحَتَ أَبْدَعَ المَدافِنِ في الصُّخورِ في المَكانِ المَعْروفِ بِوادي القُبورِ قُرْبَ طيبَةَ .

أَمّا الفِرْعَوْنُ العَظيمُ الآخَرُ فَهُوَ رَمْسيسُ الثّاني ، الَّذي حَكَمَ البِلادَ مُدَّةَ سَبْعٍ وسِتّينَ سَنَةً . ومِنْ جُمْلَةِ مَآثِرِهِ الباهِرَةِ بِناؤُهُ قَناةً مِنَ النّيلِ إلى البَحْرِ الأَحْمَرِ . وهُوَ نَفْسُهُ الَّذي اسْتَقْبَلَ يوسُفَ وكَرَّمَهُ . وعِنْدَما تَوَلّى ابْنُهُ مينَفْتا الحُكْمَ ، أَمَرَ بِطَرْدِ اليَهودِ مِنْ مِصْرَ .



أَصْبَحَتْ مِصْرُ ، تَحْتَ حُكْمِ رَمْسِيس الثَّاني ، دَوْلَة عَظيمَة وَقَوِيَّة فكانَتْ تَرِدُ إِلَيْها مَفْتوحاتٌ مِنْ أَفْريقيا ، ومِنْ أَقْصى البُلْدانِ على شَواطِئ المُتَوَسِّطِ . ونَحْنُ نَرَى في الرُّسُوم عَلَى جُدْرانِ المَقابِرِ ، حَيَواناتٍ غَريبَةً بالإِضافَةِ إِلَى الفِيَلَةِ ، والزَّرافاتِ ، والفُهُودِ ، والقُرُودِ وقَدْ جيء بها جَميعًا جِزْيَةً لِفِرْعَوْنَ العَظيمِ .

فَمِنَ الهِنْدِ جاءَتِ الجَواهِرُ الثَّمينَةُ بَرًّا ، ومِنْ بِلادِ فارِس كانَتْ تَرِدُ البَهاراتُ ، واللُّبانُ ونَبْتُ المُرّ . ورُبَّما جاءَتْها أَنْواعُ الحَرير بالطَّريقِ الطَّويلَةِ مِنَ الصِّينِ . وانْصَبَّ الذَّهَبُ والفِضَّةُ عَلَى بُيُوتِ المالِ في مِصْرَ . ومَنْ يُشاهِدِ التُّحَفَ الثَّمينَةَ ، والمُجَوْهَراتِ المُرَصَّعَةَ الَّتي كانَتْ تُوضَعُ في مَقابِرِ الفَراعِنَةِ ، يَعْلَمْ أَنَّ حِرَفِيّي مِصْرَ القَديمَةِ المَهَرَةَ قَدِ احْتَلُّوا مَرْكَزًا يَحْسُدُهُمْ عَلَيْهِ حَتَّى حِرَفِيُّو العَصْرِ الحَديثِ .

وعِنْدَ وُصُولِ الجِزْيَةِ إِلَى مِصْرَ مِنَ البِلادِ المَغْلوبَةِ ، كانَتِ العادَةُ تَقْضي بأَنْ تَسيرَ المَواكِبُ في الشَّوارِعِ ، حامِلَةً تِلْكَ الهَدايا لِكَيْ يَراها الشَّعْبُ ، فيَعْرِفَ عَظَمَةَ فِرْعَوْنَ الَّذي يَحْكُمُهُ وقُوَّتَهُ .

كانَ الفَلّاحُونَ في مِصْرَ كالعَبيدِ فِعْلًا . وعِنْدَ شِراءِ أَرْضٍ أَوْ بَيْعِها يُشْرَى الفَلّاحُونَ مَعَها أَوْ يُباعُونَ ولَمّا لَمْ تُوجَدْ في ذلِكَ الزَّمَنِ نُقُودٌ ، فإِنَّ الفَلّاحينَ كانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا . وما كانُوا يَنالُونَ إِلّا قَدْرَ ما يَكْفيهِمْ لِلْبَقاءِ عَلَى قَيْدِ الحَياةِ .



هنالك فرقٌ شاسعٌ بين الملابس الفاخرةِ والأزياء المطرّزة بالجواهر النّادرةِ التي كان يرتديها الفراعنةُ والملكاتُ . وبين الأسمال التي كان يتدثّرُ بها الفلّاحونَ . فالصورُ المرسّمة على الجدران تريبنا بدقّةٍ كيف كانوا يلبسُونَ . بَلْ إنَّ كثيرًا مِنَ الأشياء لا تزال بحالةٍ سليمةٍ وذلك بفضل الهَواء الجافّ في مصرَ العُليا ويمكننا لمسُها وتفحّصها ومشاهدةُ الحُلي ذاتها . وأحيانًا رؤيةُ الثياب التي كانت تُلبس في مصر القديمة

لم يكونوا يرتدون ثيابًا كثيرةً ، لأنّ مصر بلادٌ حارّةٌ جدًا وفي كثيرٍ من الأحيان يُرى فرعونُ نفسُه مرسومًا وهو لا يرتدي غيرَ مريولٍ صغيرٍ ولكنّه كان يستعيضُ عن الملابس بالجواهر الثّمينة والعقودِ والأساور المطليّةِ بالمينا .

ومِنَ الطّرائفِ ما كانَ يُعرَفُ بالتّاج المزدوج الذي يلبسُه فرعونُ في الاحتفالات الرّسميّة ففي العُصور الغابرة كانَتْ مصرُ العليا ومصرُ السُّفلى تشكّلان بلدين منفصلَيْنِ . وكانَ لِحاكِمِ كُلٍّ مِنهُما تاجٌ خاصٌّ للاحتفالات الرّسميّة وعِندَما اتّحدَ البَلَدانِ ، مُنْذُ آلافِ السّنين ، أصْبَحَ التّاجانِ تاجًا واحدًا

كانَ تاجُ مِصْرَ العُلْيا أبيَضَ مُستطيلًا ينتهي بعُقْدةٍ بَصَليّةِ الشّكْل . وكانَ تاجُ مِصْرَ السُّفْلى أحْمَرَ وذا شكْلٍ غَريبٍ . والرّسْمُ المقابل يعطيك فكْرةً عَنْ شكْل التّاج المُزْدوج .



كانَتْ مِصْرُ بِلادًا غَنِيَّةً . لِذا كانَ فيها أَثْرِياءُ كَثيرونَ ولَمّا كانَتْ سَيِّداتُ البَلاطِ وزَوْجاتُ الأَثْرِياءِ لا يَقُمْنَ بِعَمَلٍ . فَقَدْ كُنَّ يَقْضِينَ وَقْتًا طَويلًا في تَجْميلِ أَنْفُسِهِنَّ .

لَقَدْ تَغَيَّرَتِ الأَزْياءُ كَثيرًا عَلَى مَدَى تاريخِ مِصْرَ القَديمَةِ الطَّويلِ ويَبْدُو واضِحًا مِنْ أَدَواتِ الزِّينَةِ الخاصَّةِ بِالنِّساءِ ، والَّتي لا تَزالُ مَحْفوظَةً . أَنَّ النِّساءَ المِصْرِيّاتِ لَمْ يَكُنْ يَنْقُصُهُنَّ شَيْءٌ مِمّا لَهُ عَلاقَةٌ بِتَجْميلِ الوَجْهِ . فَقَواريرُ الحُمْرَةِ ، الَّتي تُوجَدُ فيها الحُمْرَةُ أَحْيانًا ، وأَقْلامُ تَخْطيطِ الحَواجِبِ ورُموشِ العَيْنِ ، وعُلَبُ المَساحيقِ وآنِياتُ العُطورِ ، والمَرايا المَعْدِنِيَّةُ المُزَخْرَفَةُ ، وأَمْشاطُ الشَّعْرِ الَّتي كُنَّ يَسْتَعْمِلْنَها يُمْكِنُ مُشاهَدَتُها في المُتْحَفِ البَريطانِيِّ في لَنْدَن وفي المُتْحَفِ المِصْرِيِّ في القاهِرَةِ

إِنَّ النِّساءَ اليَوْمَ يَقْضِينَ وَقْتًا طَويلًا في تَصْفيفِ شَعْرِهِنَّ وتَرْتيبِهِ . وهَكَذا فَعَلَتِ المَرْأَةُ المِصْرِيَّةُ قَديمًا . ولَكِنْ عِوَضًا عَنْ تَصْفيفِ شَعْرِها بِيَدِها ، كانَتْ تَعْمَدُ في كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ إِلَى قَصِّهِ وتَلْبَسُ عَلَى رَأْسِها شَعْرًا مُسْتَعارًا أَنيقًا . وكانَ هَذا الشَّعْرُ المُسْتَعارُ يَتَغَيَّرُ شَكْلًا وهَيْئَةً مِنْ زَمَنٍ إِلَى آخَرَ .

يُرِينا الرَّسْمُ المُقابِلُ سَيِّدَةً مِصْرِيَّةً تُجَمِّلُ عَيْنَيْها . وحَوْلَها جارِيَتانِ تَقومانِ عَلى خِدْمَتِها . وهِيَ عَلَى الأَرْجَحِ تَخُطُّ لَوْنًا أَخْضَرَ تَحْتَ عَيْنَيْها . وتُلَوِّنُ جَفْنَيْها وحاجِبَيْها بِلَوْنٍ أَسْوَدَ لِتُظْهِرَ عَيْنَيْها أَكْبَرَ وأَشَدَّ لَمَعانًا . ونَرَى عَلَى المائِدَةِ أَمامَها قُمْقُمًا يَحْتَوي عِطْرًا ذا رائِحَةٍ زَكِيَّةٍ مِنَ اللُّبانِ والمُرِّ .



إنّ إقامةَ وليمةٍ فاخرةٍ ، في عهدِ رمسيس الثاني ، أيْ منذُ ثلاثةِ آلافِ سنةٍ كانتْ مناسبةً مُمتعةً فالمصريُّون كانوا متمدِّنين جدًّا . وما رسومُهمْ الّتي نُشاهدُها على الجدْرانِ سِوى دليلٍ على آدابِهمْ وثقافتِهمْ

كان المصريُّون في العُصورِ الغابرةِ يقْعُدون على الأرْضِ لِتناوُلِ طَعامِهمْ ولكنْ إبّانَ الأُسْرةِ التّاسعةَ عشْرة ( حوالَى ١٦٥٠ ١٤٠٠ ق ٠ م ) أصْبحوا يجْلسون على كراسيَ وسُرُد . وأمامهمْ موائدُ صغيرةٌ مزخْرفةٌ بزهرِ النَّيلوفَرِ . وكانَ الضُّيوفُ يُزيِّنونَ رُؤُوسَهمْ بالأزْهارِ أيْضًا .

ولدَيْنا وَصْفٌ بِوليمةٍ احْتَوَتْ عشرةَ أنْواعٍ مُختلفةٍ من اللُّحومِ . وخمْسةَ أنْواعٍ من الطُّيورِ ، وستّةَ عشرَ نوْعًا من الخُبْزِ والكعْكِ وكانتِ الفاكهةُ متوفِّرةً وكانَ كلُّ شيْءٍ يُقدَّمُ على أطْباقٍ من فضّةٍ . أمّا الأرْغفةُ الصَّغيرةُ فقدْ صُنِعتْ علَى أشْكالٍ عديدةٍ مزَخْرفةٍ .

وكانَ الموسيقيّونَ ، تكْريمًا لِلضُّيوفِ ، يَعْزِفونَ في أثْناءِ الوَليمةِ علَى آلاتٍ موسيقيّةٍ كالنّاي ، والمِزْمار ، والبُوق ، والقيثارة ولا يزالُ كثيرٌ منْ هذهِ الآلاتِ محفوظًا في المتاحِفِ وهي صالحةٌ للعزْفِ . وبإمكانِ الاستماعِ إلى الموسيقى التي استمعَ إليْها المصريّونَ منذُ آلافِ السّنينَ . وكانَ الموسيقيّونَ ، وأحْيانًا ضُيوفُهمْ ، يَضَعُونَ علَى رُؤوسِهمْ أكْوازًا منْ شَمْعٍ ذي رائحةٍ زكيّةٍ تذوبُ فيُطيِّبُ شُعورَهمْ



لَقَدْ وُجِدَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ القُبُورِ نَماذِجُ خَشَبِيَّةٌ أَوْ فَخَارِيَّةٌ لِلْبُيُوتِ الَّتِي كانَ يَسْكُنُها المِصْرِيُّونَ . وهذِهِ تُعْطِينا فِكْرَةً واضِحَةً عَنْ مَساكِنِهِمْ وأَسالِيبِ حَياتِهِمْ .

كانَتِ البُيوتُ عالبًا ذاتَ طَبَقَتَيْنِ . وقد شُيِّدَتْ ذواتُ مِظَلّاتٍ مُشْرِقَةِ الأَلْوانِ . ولم يكن لِلنَّوافِذِ أَلْواحٌ زُجاجِيَّةٌ ؛ لِأَنَّ الطَّقْسَ فِي مِصْرَ العُلْيا كانَ حارًّا جدًّا . وكانَ مِنَ المَرْغُوبِ فيهِ دُخُولُ النَّسيمِ العليلِ لِيُلَطِّفَ الجَوَّ . أَمّا السُّطُوحُ فكانَتْ مُنْبَسِطَةً كَما هِيَ اليَوْمَ فِي القاهِرَةِ تَمامًا .

كانَتْ بُيُوتُ الأَغْنياءِ تَحْتَوِي مَوائِدَ وكَراسِيَّ مَحْفُورَةً حَفْرًا جَمِيلًا ومُزَخْرَفَةً . وكانَتِ الحُصُرُ المُلَوَّنَةُ مُعَلَّقَةً عَلَى الحِيطانِ والأَرْضُ مَفْرُوشَةً بالسَّجّادِ الفاخِرِ . وحَيْثُما تَلَفَّتَّ فِي البَيْتِ ، فِي الدّاخِلِ أَوِ الخارِجِ وَجَدْتَ رُسُومًا زَهِيَّةً . وهناكَ بُيُوتٌ كَثِيرَةٌ تُحيطُ بِها الحَدائِقُ الَّتِي تَنْمُو فيها أَشْجارُ النَّخِيلِ والتِّينِ والدَّوالِي ، ومُخْتَلِفُ أَنْواعِ الزَّهْرِ .

وعَلَى العَكْسِ مِنْ هذا كانَتْ بُيُوتُ الفُقَراءِ . فَهِيَ فِي الغالِبِ غُرْفَةٌ واحِدَةٌ مَبْنِيَّةٌ مِنَ الآجُرِّ أَوِ الطُّوبِ المُجَفَّفِ فِي الشَّمْسِ ، والذي لا لَوْنَ لَهُ ، ولا أَثَرَ فيها لِلْمَفْرُوشاتِ المَوْجُودَةِ فِي بُيُوتِ الأَغْنِياءِ . ومِثْلُ هذهِ البُيُوتِ لا يَزالُ يُوجَدُ فِي بَعْضِ القُرَى المِصْرِيَّةِ حَتَّى اليَوْمِ



لَقَدْ مَرَّ مَعَنا أَنَّ المِصْرِيِّينَ كانُوا بَنَّائِينَ عظيمِينَ كما يُسْتَدَلُّ على ذلك مِنَ الأَهْرامِ والمَقابِرِ والهَياكِلِ. وعَلاوَةً عَلَى أُلوفِ العُمّالِ الذين اسْتُخْدِمُوا في إقامَةِ هذِهِ الصُّرُوحِ الضَّخْمَةِ. كان هُنالِكَ النَّجّارُون. وصانِعُو الآجُرِّ. والرَّسّامُونَ. والوَرّاقُونَ والنَّسّاجُونَ والمُزَخْرِفُونَ. فجميعُ هؤُلاءِ اسْتُخْدِمُوا في بِناءِ المَنازِلِ لِيَسْكُنَ فيها النّاسُ

وإنَّنا نرى في الصُّوَرِ المَرْسُومَةِ على الجُدْرانِ. وفي مَلْعَبِ المَرْدَى كَثيرًا مِنَ النّاسِ يَقُومُونَ بِهذِهِ الأَعْمالِ. نرى صانِعَ الآجُرِّ يضعُ المَوادَّ في قَوالِبَ خَشَبِيَّةٍ ثُمَّ يَشْوِيها بِحَرارَةِ الشَّمْسِ. وكانُوا أَحْيانًا يَبْنُونَ حائِطًا بِهذا الآجُرِّ يَبْلُغُ سُمْكُهُ ٢٤ مِتْرًا.

كان لَدَى النَّجّارِينَ كَثيرٌ مِنَ الآلاتِ التي نَسْتَعْمِلُها اليَوْمَ كالإِزْمِيلِ والمِنْشارِ. وبَيْنَما نرى النَّجّارَ المُعاصِرَ يَصْنَعُ زاوِيَةً وَصْلٍ قائِمَةً بِواسِطَةِ الآلاتِ. كانَ زَمِيلُهُ المِصْرِيُّ القَدِيمُ يَعْمَدُ أَحْيانًا إلى الأَشْجارِ. فيلْوِي أَغْصانَها بِحَيْثُ تُشَكِّلُ زاوِيَةً قائِمَةً. ويَتْرُكُها تَنْمُو عَلَى مَدَى عِدَّةِ سَنَواتٍ. لَيْسَ هذا فحسب. بَلْ إِنَّهُمْ صَنَعُوا الكُرْسِيَّ الَّذي لَيْسَ لَهُ ظَهْرٌ أَوْ ذِراعانِ. فَقَطَعُوا جِذْعَ شَجَرَةٍ. بَعْدَ تَوَجُّهِ ثَلاثَةِ أَغْصانٍ نامِيَةٍ على الجِذْعِ – هِيَ قَوائِمُ الكُرْسِيِّ – الاتِّجاهاتِ الصَّحِيحَةَ

أَمّا صانِعُو الفَخّارِ والزُّجاجِ، وصانِعُو الذَّهَبِ والفِضَّةِ فكانُوا حِرَفِيِّينَ ماهِرِينَ. وفي مَتاحِفِ العالَمِ أَجْمَعَ تُوجَدُ نَماذِجُ بَديعَةٌ مِنْ صُنْعِهِمْ وهذا عَدا الأَحْجارِ الكَرِيمَةِ السُّماقِيَّةِ والأُرْجُوانِيَّةِ التي كانَتْ تُسْتَعْمَلُ لِغاياتٍ زُخْرُفِيَّةٍ كَثيرَةٍ



كانَ مُعْظمُ المِصْرِيِّينَ فَـلّاحِينَ . وكانَتْ فِلاحَتُهم مِنْ نَوْعٍ فَرِيدٍ . تَعْتَمِدُ – كَما لا تَزالُ إلى يَوْمِنا هذا – عَلَى مِياهِ نَهْرِ النِّيلِ .

إنَّ مِصْرَ هي رُقْعَةٌ مِنَ الأَرْضِ طَوِيلَةٌ ضَيِّقَةٌ مُمْتَدَّةٌ عَلى مَجْرَى النِّيلِ . تُلامِسُها شَرْقًا وغَرْبًا صَحْراءُ قاحِلَةٌ . ولَوْلا النِّيلُ لَما وُجِدَتْ مِصْرُ . فكُلَّ سَنَةٍ . في الصَّيفِ ، وبَعْدَ هُطُولِ الأَمْطارِ الاسْتِوائِيَّةِ في أَواسِطِ أَفْرِيقيا . يَحْمِلُ النِّيلُ المِياهَ لإِرْواءِ الأَرْضِ الَّتِي جَفَّفَها الطَّقْسُ الحارُّ

فإذا ما انْحَبَسَ المَطَرُ . كَما كانَ يَحْدُثُ أَحْيانًا . عَمَّتِ المَجاعَةُ مِصْرَ . ولكِنَّ خَطَرَ المَجاعَةِ زالَ اليَوْمَ . بِفَضْلِ بِناءِ سَدٍّ عَظِيمٍ ؛ لِخَزْنِ المِياهِ عِنْدَما تَهْطُلُ الأَمْطارُ غَزِيرَةً

كانَ عَمَلُ الفَـلّاحِ المِصْرِيِّ القَدِيمِ قَلِيلًا جِدًّا ، وهُوَ يَقْتَصِرُ عَلَى فِلاحَةِ الأَرْضِ وبَـذْرِ الحُبُوبِ . وأَحْيانًا كانَ يَكْتَفِي بِبَذْرِ الحُبُوبِ دُونَ فِلاحَةٍ . بَلْ كانَ يُفْلِتُ قُطْعانَ الخَنازِيرِ لِتَدُوسَ الأَرْضَ المَبْذُورَةَ . وعَلَيْهِ بَعْدَ ذلِكَ جَمْعُ الحِصادِ . فَحِصادُهُ كانَ يَعْتَمِدُ عَلَى النِّيلِ الَّذي يَطُوفُ عَلَى الأَرْضِ المَبْذُورَةِ فَيُغَذِّيها ويَرْوِيها . ولا عَجَبَ إذا ما جَعَلَ المِصْرِيُّونَ القُدَماءُ نَهْرَ النِّيلِ إِلهًا فَعَبَدُوهُ .



لَمْ يَكْتَفِ النِّيلُ بِمَنْحِ المِصْرِيِّ الأَرْضَ الخِصْبَةَ لِزِرَاعَتِهِ، بَلْ أَدَّى لَهُ خَدَمَاتٍ كَثِيرَةً أُخْرَى. فَكَانَ الوَسِيلَةَ الرَّئِيسَةَ لِلتَّنَقُّلِ دَاخِلَ القُطْرِ نَاهِيكَ بِالأَسْمَاكِ النِّيلِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُؤَلِّفُ جُزْءًا كَبِيرًا مِنْ غِذَائِهِ اليَوْمِيِّ.

وَمِنْ هُنَا نَشَأَتِ الحَاجَةُ لِبِنَاءِ القَوَارِبِ. وَفِعْلًا، مِنْ أَقْدَمِ العُصُورِ، صَنَعَ المِصْرِيُّونَ الكَنُو وَهُوَ زَوْرَقٌ طَوِيلٌ، خَفِيفٌ، ضَيِّقٌ يُسَيَّرُ بِالمِجْدَافِ، وَيُصْنَعُ مِنْ تَجْوِيفِ جُذُوعِ الأَشْجَارِ. وَقَدْ أَتْقَنَ المِصْرِيُّونَ صَنْعَةَ القَوَارِبِ ذَوَاتِ الشِّرَاعِ المُثَلَّثِ، وَالمَجَادِيفِ، وَخَاصَّةً فِي عَهْدِ رَمْسِيس. وَقَدْ وُجِدَتْ فِي قُبُورِ الفَرَاعِنَةِ نَمَاذِجُ عَنْ هَذِهِ القَوَارِبِ، وَعَلَيْهَا المُجَذِّفُونَ كُلٌّ فِي مَوْضِعِهِ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ مُدِيرُ الدَّفَّةِ وَمُوَجِّهُهَا وَاقِفًا فِي مُؤَخَّرَةِ السَّفِينَةِ وَبِيَدِهِ مِجْذَافُهُ الكَبِيرُ.

وَمَنْ يَزُورُ النِّيلَ اليَوْمَ يُمْكِنُهُ أَنْ يَرَى قَوَارِبَ شَبِيهَةً بِتِلْكَ، وَهِيَ فِي حَالِ إِقْلَاعِهَا بِاتِّجَاهِ مَجْرَى النِّيلِ تَعْتَمِدُ الشِّرَاعَ. وَإِذَا سَارَتْ فِي اتِّجَاهٍ مُعَاكِسٍ عَمَدَ المُجَذِّفُونَ إِلَى التَّجْذِيفِ بِقُوَّةٍ لِيَتَغَلَّبُوا عَلَى التَّيَّارِ.

كَانَ المِصْرِيُّونَ يَصْطَادُونَ السَّمَكَ مِنْ عَلَى قَوَارِبِهِمْ أَوْ مِنَ الشَّاطِئِ. يَأْخُذُونَ شَبَكَةً طَوِيلَةً يُثَبِّتُ أَحَدُ طَرَفَيْهَا بِالشَّاطِئِ، ثُمَّ يُلْقُونَهَا مِنَ القَارِبِ وَهُمْ يَسِيرُونَ بِشَكْلِ نِصْفِ دَائِرَةٍ، ثُمَّ يُثَبِّتُونَ طَرَفَهَا الآخَرَ بِالشَّاطِئِ أَيْضًا. وَعِنْدَمَا تُسْحَبُ الشَّبَكَةُ تَجْمَعُ الأَسْمَاكَ الَّتِي عَلِقَتْ بِهَا. وَبِإِمْكَانِكَ مُشَاهَدَةُ طَرِيقَةِ الصَّيْدِ هَذِهِ فِي مِصْرَ اليَوْمَ



وَصَلَتْ مِصْرُ ، تَحْتَ حُكْمِ الأُسْرَةِ التاسعة عشرة إلى دَرَجَةٍ عالِيَةٍ مِنَ التَّمَدُّنِ ، وأَصْبَحَ المِصْرِيُّونَ في حاجَةٍ لِأَشْياءَ كَثيرَةٍ كانَ لا بدَّ مِن اسْتِيرادِها مِنَ البِلادِ الأُخْرَى .

فَفي أَوائِلِ عَهْدِ الأُسْراتِ ، وهيَ تَرْقَى إلى سَبْعَةِ أَوْ ثَمانِيَةِ آلافِ سَنَةٍ ، اقْتَصَرَتِ التِّجارَةُ عَلَى ما كانَ يَرِدُ إلى مِصْرَ مِنْ بِلادِ النُّوبَةِ عَبْرَ الصَّحْراءِ . لَقَدْ عاشَ المِصْرِيُّونَ أَكْثَرَ حَياتِهِمْ في مِصْرَ العُلْيا ، وكانَتْ مَعْرِفَتُهُمْ بالبِحارِ والبِلادِ الَّتي وَراءَها ضَئيلَةً جِدًّا .

تَوَحَّدَتْ مِصْرُ العُلْيا ومِصْرُ السُّفْلَى إبّانَ حُكْمِ رَمْسِيس ، واسْتَوطَنَ الشَّعْبُ دِلْتا النيلِ وبَعْدَ إقامَتِهِمْ عَلَى شَواطِئِ المُتَوَسِّطِ أَلِفوا البِحارَ ، وشاهَدُوا السُّفُنَ الكَبيرَةَ مِنْ صُنْعِ الفينيقيِّينَ تَمْخُرُ الأوقيانوسَ ، وتَعَرَّفُوا إلى البَحّارَةِ الأَشِدّاءِ مِنْ جَزيرَةِ كريتَ . بَعْدَ هذا ، وَطَّدُوا العَزْمَ عَلَى بِناءِ سُفُنٍ خاصَّةٍ بِهِمْ .

لَدَيْنا نَماذِجُ عَديدَةٌ مِنْ هذِهِ السُّفُنِ ، بَعْضُها في قُبورِ المُلوكِ وهيَ مُلَوَّنَةٌ بأَلْوانٍ مُشْرِقَةٍ . وتَكُونُ أَقْواسُها أَحْيانًا مُزَخْرَفَةً بِشَكْلِ زَهْرَةِ النَّيْلوفَر . وشِراعُها مُفْرَدٌ كَبيرٌ يَلْتَقِطُ نَسيمَ الصَّحْراءِ منهم كان خشب وعِنْدَما لا تَكُونُ رِيحٌ مُؤاتِيَةٌ يَعْمَدُونَ إلى التَّجْديفِ الَّذي يَقُومُ بِهِ عَبيدٌ أَكْثَرُهُمْ أَسْرى حَرْبٍ كانَتْ هذِهِ السُّفُنُ مَتينَةَ الصُّنْعِ تُؤَدّي وَظيفَةَ الإِبْحارِ في النّيلِ ذَهابًا وإِيابًا عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ .



أمّا عِنْدَ وَفاةِ أَحَدِ الفَراعِنَةِ ، أَوْ أَحَدِ الأَعْيانِ في بِلادِ مِصْرَ القَديمَةِ ، فكانَ لا بُدَّ مِنْ مُمارَسَةِ طُقوسٍ عِدَّةٍ . وقَدْ تَمَكَّنّا مِنْ مَعْرِفَةِ هذِهِ الطُّقوسِ والعاداتِ بِفَضْلِ الرُّسومِ الدَّقيقَةِ الصُّنْعِ الّتي وُجِدَتْ عَلَى جُدْرانِ القُبورِ ، وهِيَ تُمَثِّلُ مَشاهِدَ عَنِ النَّشاطاتِ اليَوْمِيَّةِ الّتي كانَ يُمارِسُها الشَّعْبُ .

كانَتْ جُثَّةُ فِرْعَوْنَ تُلَفُّ بِأَقْمِشَةٍ مِنَ القُطْنِ وتُوضَعُ في صُنْدوقٍ خَشَبِيٍّ حُفِرَ عَلَيْهِ شَكْلُ الجُثَّةِ ذاتِها . وبَعْضُ هذِهِ الصَّناديقِ مَوْجودٌ في المُتْحَفِ البَريطانِيِّ وفي مَتاحِفِ مِصْرَ . وهِيَ مُلَوَّنَةٌ بِأَلْوانٍ مُشْرِقَةٍ ، وقَدْ حُفِرَ الوَجْهُ بِعِنايَةٍ فائِقَةٍ . ووُجِدَتْ بَعْضُ هذِهِ الصَّناديقِ مُغَلَّفَةً بِغِلافٍ رَقيقٍ مِنَ الذَّهَبِ الخالِصِ .

كانَ هذا الصُّنْدوقُ المَحْفورُ يوضَعُ ضِمْنَ صُنْدوقٍ آخَرَ مَحْفورٍ مِثْلَهُ تَمامًا . وهذا ضِمْنَ صُنْدوقٍ ثالِثٍ . وكانَ الرُّهْبانُ خِلالَ هذِهِ العَمَلِيَّةِ يَقْرَأونَ مِنْ كُتُبٍ مُقَدَّسَةٍ . وقَدْ تَسْتَغْرِقُ عَمَلِيَّةُ تَحْنيطِ جُثَّةِ فِرْعَوْنَ ووَضْعِهِ في قَبْرِهِ مُدَّةً تَصِلُ إلى سَبْعينَ يَوْمًا .

وأَخيرًا يوضَعُ الصُّنْدوقُ الكَبيرُ عَلى مِزْلَجَةٍ يَجُرُّها عَدَدٌ مِنَ الأَرِقّاءِ ، وكانوا في كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ يَعْبُرونَ فيهِ النّيلَ مُحَمَّلًا عَلى قارِبٍ خاصٍّ ، ويَدْفِنونَهُ في هَرَمٍ أَوْ قَبْرٍ مَنْحوتٍ في الصَّخْرِ ، ثُمَّ يَخْتِمونَ مَدْخَلَ القَبْرِ .



هُنالِكَ فِي مِصْرَ وادٍ صَخْرِيٌّ كالِحٌ ، خِلْوٌ مِنَ الأَشْجارِ والعُشْبِ الأَخْضَرِ . عَلَى جانِبَيْهِ مُنْحَدَراتٌ صَخْرِيَّةٌ شاهِقَةٌ ، وكُتَلٌ هائِلَةٌ مِنَ الصُّخُورِ مُلْقاةٌ عَلَى الأَرْضِ الرَّمْلِيَّةِ . إِنَّهُ وادِي القُبُورِ .

فِي تِلْكَ الصُّخُورِ ، عَلَى كِلا جانِبَيِ الوادِي ، تُوجَدُ قُبُورُ الفَراعِنَةِ وكِبارِ الرَّسْمِيِّينَ . وقَدْ حُفِرَتْ فِي الصُّخُورِ بِواسِطَةِ عُمّالٍ عَلَى ضَوْءٍ باهِتٍ صادِرٍ مِنْ قَنادِيلِ زَيْتٍ . ورُغْمَ هذا ، كانَتْ جُدْرانُ القُبُورِ مَنْقُوشَةً ومُزَيَّنَةً بِمَهارَةٍ فائِقَةٍ

كانَتْ تِلْكَ القُبُورُ تَحْتَوِي أَشْياءَ ثَمِينَةً ؛ ولِذا كانَتْ عُرْضَةً لِلسَّرِقَةِ ، وأَحْيانًا يَنْهَبُها مَنْ حَفَرَها . كانَ الجُنُودُ يَحْرُسُونَ مَداخِلَ الوادِي الضَّيِّقَةَ . وقَدْ بَلَغَ بِالمِصْرِيِّينَ الحَذَرُ حَدًّا جَعَلَهُمْ يَنْقُلُونَ ، خِفْيَةً ، جُثَّةَ الفِرْعَوْنِ مِنْ قَبْرٍ إِلَى آخَرَ كَيْ يُحْبِطُوا مُحاوَلاتِ اللُّصُوصِ .

ومِنَ النّادِرِ جِدًّا أَنْ نَجِدَ قَبْرًا لَمْ يُسْرَقْ . ولكِنْ فِي عامِ ١٩٢٢ اكْتُشِفَ قَبْرٌ لَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ اللُّصُوصُ . وُجِدَتْ فِيهِ جَمِيعُ الكُنُوزِ والآثارِ الَّتِي تَعُودُ إِلى ثَلاثَةِ آلافِ سَنَةٍ . إِنَّهُ قَبْرُ تُوتَ عَنْخَ آمُونَ . وقَدْ نُشِرَ كِتابٌ خـاصٌّ يَحْتَوِي مَعْلُوماتٍ وصُوَرًا عَنْ مِئاتٍ مِنَ التُّحَفِ الَّتِي احْتَواهـا ذلِكَ القَبْرُ .



اكْتُشِفَ قَبْرُ تُوتْ عَنْخ آمُون عَرَضًا. كَانَ مَدْخَلُهُ تَحْتَ مَدْخَلِ قَبْرِ فِرْعَوْنٍ آخَر. وعِنْدَ مُحاوَلَةِ سَرِقَةِ هذا الأَخِيرِ أَزاحَ اللُّصُوصُ قِطَعَ الحِجارَةِ المُكَسَّرَةِ والتُّرابَ مِنْ مَدْخَلِهِ. فَغَطَّوْا بِها مَدْخَلَ قَبْرِ تُوتْ عَنْخ آمُونَ كُلِّيًّا.

كانَ اكْتِشافُهُ في شَهْرِ تِشْرِين الثَّانِي عامَ ١٩٢٢ . أَيْ بَعْدَ مُرُورِ ثَلاثَةِ آلافٍ ومِئَتَيْنِ وخَمْسٍ وسِتِّينَ سَنَةً عَلَى دَفْنِهِ دُونَ أَنْ يَطَأَ قَبْرَهُ إِنْسانٌ وجَمِيعُ الكُنُوزِ تَقْرِيبًا الَّتِي دُفِنَتْ مَعَ فِرْعَوْنَ وُجِدَتْ سَلِيمَةً. لَمْ تَمَسَّها يَدٌ.

كانَ المِصْرِيُّونَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الإِنْسانَ عِنْدَما يَمُوتُ، يَنْتَقِلُ إِلى عالَمٍ آخَرَ. ويَعِيشُ حَياةً كالَّتِي كانَ يَحْياها عَلَى الأَرْضِ تَمامًا. لِذلِكَ وُضِعَ في قَبْرِهِ كُلُّ ما يُمْكِنُ أَنْ يَحْتاجَ إِلَيْهِ. وإِذا كانَ القَبْرُ لِفِرْعَوْنَ يَكُونُ بالطَّبْعِ مُزَيَّنًا بِأَثْمَنِ الحُلِيِّ. ويَكُونُ الأَثاثُ المُلُوكِيُّ مُرَصَّعًا بالذَّهَبِ والحِجارَةِ الكَرِيمَةِ. وتَكُونُ الأَوانِي الأُخْرَى كالطَّاساتِ وأَقْداحِ الشَّرابِ ذاتَ تَصْمِيمٍ بَدِيعٍ جِدًّا ومِنَ الذَّهَبِ الخالِصِ.

وتُوجَدُ كُنُوزُ قَبْرِ تُوتْ عَنْخ آمُون في مَتْحَفٍ في القاهِرَةِ. وهِيَ تُعْطِينا فِكْرَةً رائِعَةً عَنْ حَياةِ المِصْرِيِّينَ قَبْلَ ثَلاثَةِ آلافِ سَنَةٍ. ونَرَى في الصَّفْحَةِ المُقابِلَةِ رُسُومًا لِبَعْضِ هذِهِ الكُنُوزِ. إِذْ مِنَ المُسْتَحِيلِ نَشْرُها كُلِّها. وإِذا ما تَأَمَّلْنا هذِهِ الرُّسُومَ نَقِفُ حائِرِينَ عِنْدَما نَتَذَكَّرُ كَيْفَ كانَتِ الحَياةُ في أُورُوبّا عِنْدَما كانَتْ تُصْنَعُ هذِهِ الأَشْياءُ.

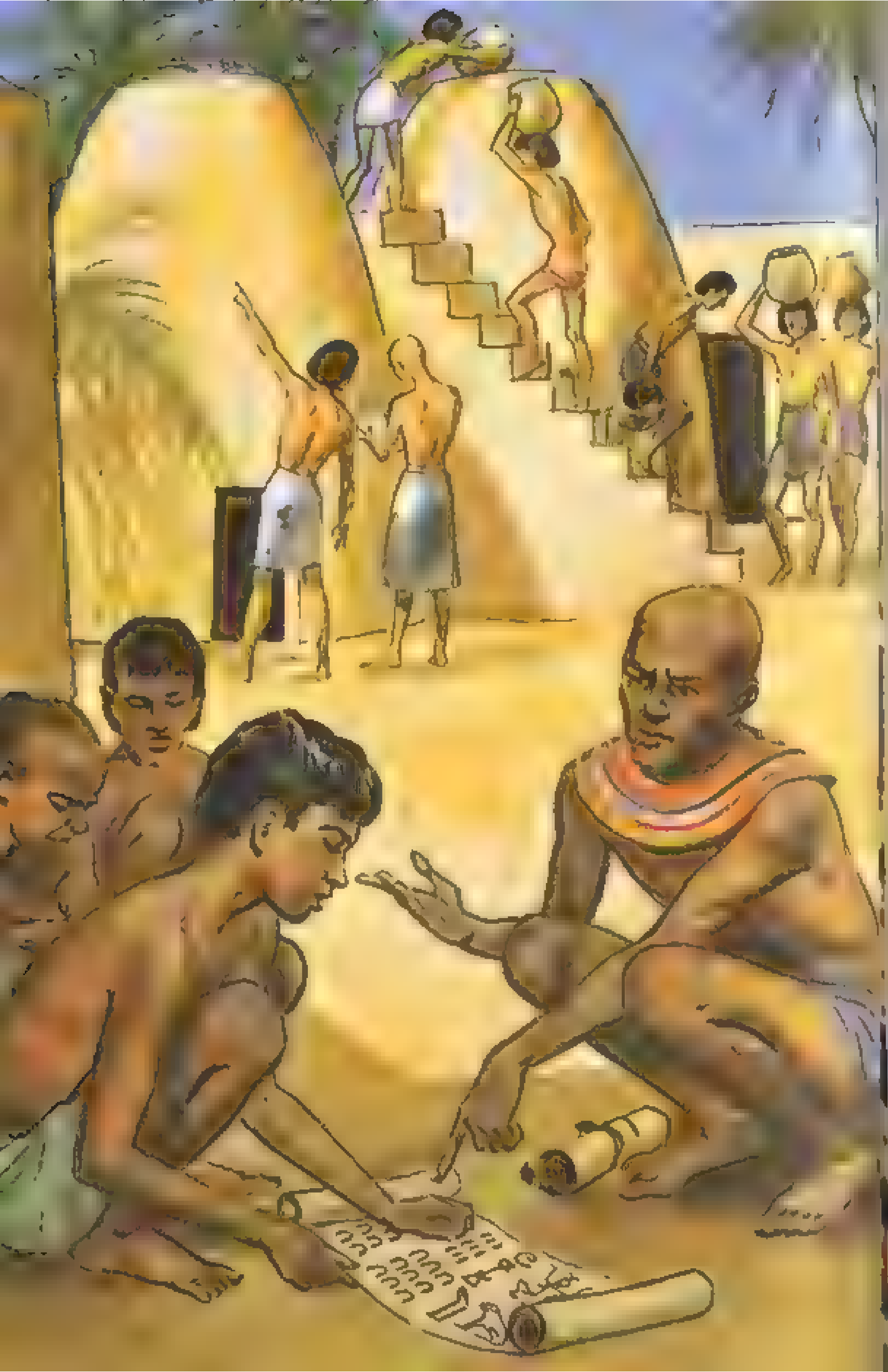


تدلُّ جميعُ الرُّسومِ الزَّيتيّةِ على جدرانِ المقابرِ . وملفّاتِ البردي المزخرفةِ والأثاثِ . على أنَّ المصريّينَ القدماءَ كانوا فنّانين ماهرين .

كان فنُّهم ذا طابعٍ خاصٍّ . وقد يبدو لنا اليومَ غريبًا ولكنّه على كلِّ حالٍ فنٌّ زخرفيٌّ بديعٌ كما نراه في نسخٍ طبقِ الأصلِ مأخوذةٍ عن صورٍ زيتيّةٍ كثيرةٍ . إذ نظرنا مثلًا إلى صفٍّ من العبيدِ أو الجنودِ . نراهم يشبهُ بعضُهم بعضًا تمامًا . ويقفُ الواحدُ خلفَ الآخرِ . أمّا وجوهُهم فجانبيّةٌ . مع أنّ أجسامَهم أماميّةٌ . وعيونُهم كأنّها موجّهةٌ إلينا . وترسمُ أقدامُهم وسيقانُهم دائمًا جانبيّةً ومن الجهةِ الداخليّةِ . ونرى كلَّ ذلك بحسبِ رسمِ أصابعِ القدمِ

كان المصريّون عندما ينحتون تمثالًا أو يحفرون صورةَ وجهٍ لناووسٍ (تابوتٍ حجريٍّ يحتوي جثّةً محنّطةً) يُبدعون في حفرِ الوجهِ . فيظهرُ كأنَّ الحياةَ تدبُّ فيه . ولا ينقصُه إلّا النُّطقُ

ومن أجملِ التماثيلِ المحفوظةِ بيننا رأسُ الملكةِ نفرتيتي . وهو من حجرٍ . ويبدو كأنّه وجهٌ حيٌّ والعيونُ فيه صبغته ... رأسٌ ... على أنّه كان في وسعِ الفنّانين المصريّين تقليدُ الطبيعةِ لو أرادوا ذلك



كانَ البَنّاؤون المِصْرِيُّون قادِرِين على إنشاء طُرُقٍ قياساتٍ دقيقةٍ جدًّا كما هي الحال في هَرَمِ خوفو الكبير، ذلك أنهم تفهَّموا الحساب والهَنْدَسَة – ولَوْ بِصُورَةٍ بِدائيَّةٍ . وفي المَتْحَفِ البريطاني مِلفٌّ مُهِمٌّ جدًّا . يحتوي عَدَدًا مِنَ المَسائِلِ الحِسابيَّةِ . وأكثَرُها عَمَليَّةٌ جدًّا كَيْف تحدّ مساحة حقلٍ ؟ ما هي كميَّة الحبوب التي تستوعبها أهراء بشكل حليَّةٍ نحل ؟ كما يظهرُ في رَسْمٍ مُقابل

كان باستطاعة المِصْريّين ، إذا مرضوا ، استدعاء طبيب كان العلاج لديه بصفة طبيبٍ مؤلَّف من تعويذةٍ . وتَبْتهِل للآلهة مع مزيج من الحشائش . لَمْ تكنْ عِنْدَهُم العقاقيرُ والأدْوِيَةُ الَّتي نَعْرِفُها اليَوْمَ ولكِنْ كان عندهم جرّاحون ماهرون

وقَدْ دَرَسَ المِصْرِيُّونَ النُّجُومَ فمُنْذُ آلاف السِّنين توصَّلوا إلى وضع تقْويمٍ ( روزْنامَةٍ ) هُوَ أساسُ التَّقْويمِ الَّذي نَعْتَمِدُهُ اليَوْمَ ولا نغالي إذا قُلْنا إنَّ تقْويمَهُمْ ، في بَعْضِ النَّواحي ، يفوق تقْويمنا ، إذْ إنَّ عدد أيّام شهور السَّنة متساوٍ فيه

كانَتِ الحَياةُ في مِصْرَ القَديمَةِ مُمْتِعَةً . كانُوا يَلْعَبون الشِّطْرَنْجَ وكذلك الكُرَةَ بطرقٍ مُتَعَدِّدَةٍ . وكانَ الأَوْلادُ يَسْتَمْتِعُون بحكاياتِ الجِنِّ . وقد أُخِذَ عنهم حكايتا سندريلا ، والأربعين حرامي



عِنْدَما نَتَكَلَّمُ عَنْ مِصْرَ القَدِيمَةِ ، يُفَكِّرُ أَكْثَرُ النَّاسِ **بِكِلْيُوباترا** ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ القِصَصِ وَالرِّواياتِ كُتِبَتْ عَنْها . وَمِنْها رِوايَةٌ لِشِكسبيرَ . في الواقِعِ ، لا تَنْتَمي كِلْيُوباترا إِلَى مِصْرَ القَدِيمَةِ إِطْلاقًا ، فَهِيَ قَدْ وُلِدَتْ في سَنَةِ ٦٨ ق. م. أَيْ بِما يَقْرُبُ مِنْ أَلْفٍ وَثَلاثِمِئَةِ سَنَةٍ بَعْدَ عَهْدِ رَمْسيس الَّذي مَرَّ بِنا وَصْفُهُ

في كِتابٍ آخَرَ مِنْ هٰذِهِ السِّلْسِلَةِ يُمْكِنُكَ أَنْ تَقْرَأَ عَنِ الإِسْكَنْدَرِ الأَكْبَرِ المَقْدونِيِّ ، وَبَعْدَ إِنْتِصاراتِهِ عَلَى مِصْرَ ، سَنَةَ ٣٣٢ ق. م. ، أَصْبَحَ أَحَدُ قُوَّادِهِ ، وَاسْمُهُ بَطْليموس حاكِمًا عَلَيْها ، وَأَسَّسَ هٰذا الحاكِمُ أُسْرَةً جَديدَةً . وَكانَتْ كِلْيُوباترا آخِرَ المُتَحَدِّرينَ مِنْ تِلْكَ الأُسْرَةِ ، وَتَوَلَّتِ الحُكْمَ عَلَى مِصْرَ .

أَصْبَحَتْ كِلْيُوباترا مَلِكَةَ مِصْرَ وَهِيَ بَعْدُ في السّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها . وَقَدْ شارَكَها أَخوها في الحُكْمِ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ عَلَى صَبِيَّةٍ صَغيرَةٍ حُكْمُ البِلادِ ، وَهٰكَذا طُرِدَتْ مِنْ مِصْرَ . فَتَوَجَّهَتْ نَحْوَ سورِيَة لِتَجْمَعَ جَيْشًا وَاسْتِعادَةِ عَرْشِها ، وَقَدْ ساعَدَها عَلَى ذٰلِكَ يوليوس قَيْصَرُ الَّذي قَدِمَ مِصْرَ مَعَ كَتيبَةٍ مِنَ الجُنودِ الرّومانِ . وَقَدْ غَيَّرَ التِقاءُ القَيْصَرِ كِلْيُوباترا وَجْهَ التّاريخِ . فَقَدْ نُحِّيَتْ عَنِ العَرْشِ لِيَتَرَبَّعَ عَلَيْهِ أَخوها الأَصْغَرُ ولٰكِنَّهُ ماتَ مَسْمومًا . وَأَصْبَحَتْ هِيَ مَلِكَةَ مِصْرَ دونَ مُنازِعٍ

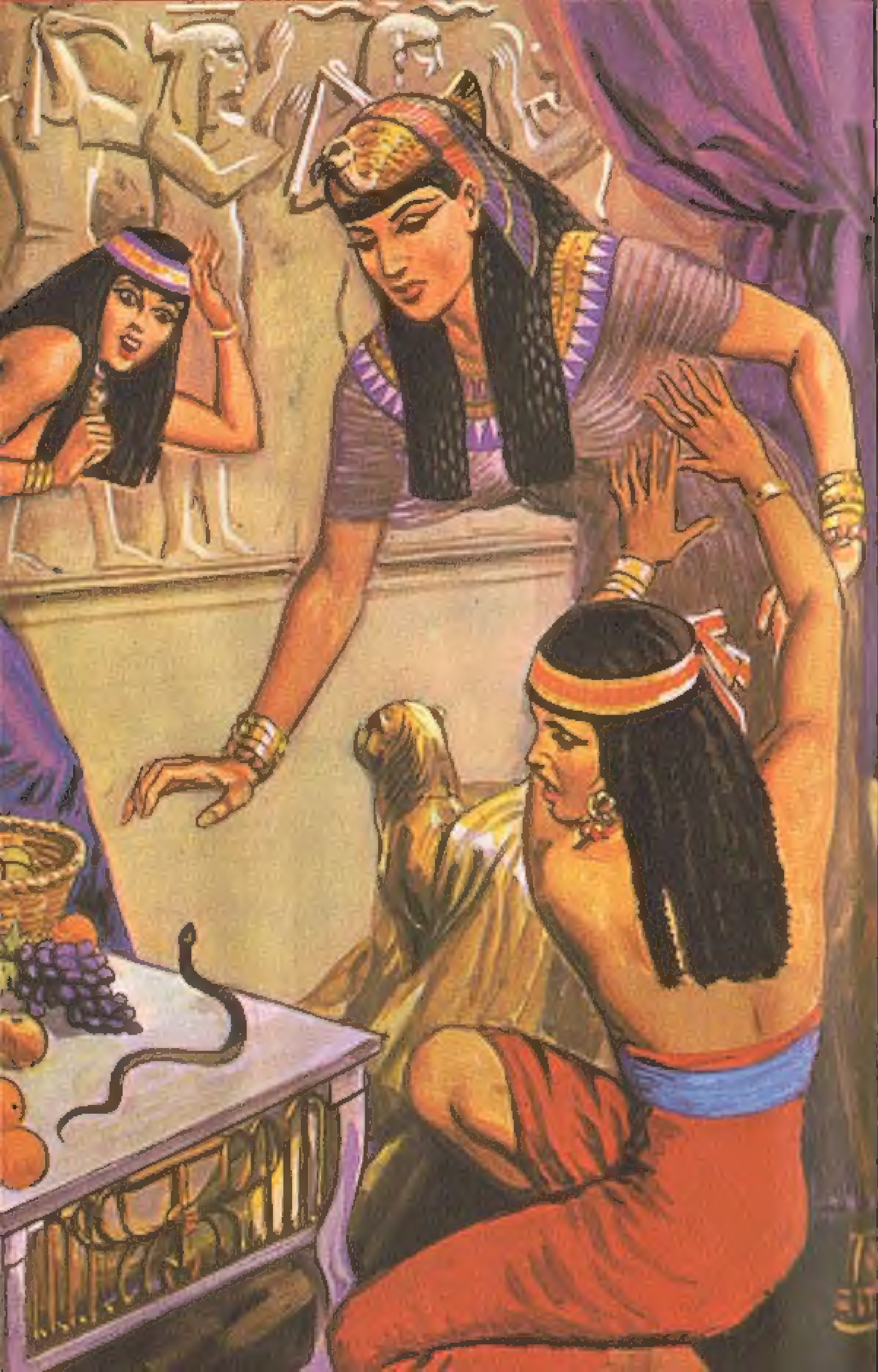


عِنْدَما اَغْتيلَ يوليوسُ قيْصَرُ كانَتْ كِلْيوباترا تَزورُ روما . ولَمْ يَكُنِ الشَّعْبُ الرُّومانيُّ يُحِبُّها ، لِأَنَّها كانَتْ أَجْنَبِيَّةً . فعادَتْ إِلى مِصْرَ وعاشَتْ هُناكَ كَما كانَ الفَراعِنَةُ يَعيشونَ قَبْلَها بِأُبَّهَةٍ عَظيمَةٍ .

بَعْدَ اِغْتيالِ يوليوسَ قيْصَرَ خَلَفَهُ أُوكْتافيوسُ . وعِنْدَما تَخاصَمَ أُوكْتافيوسُ مَعَ مارْكْ أَنْتوني صَديقِ القيْصَرِ . لَجَأَ الأَخيرُ إِلى مِصْرَ . فأَعْلَنَ أُوكتافيوسُ الحَرْبَ عَلَيْها . ولَحِقَ بِمارك أَنتوني عَلى رَأْسِ أُسْطولٍ عَظيمٍ . مُصَمِّمًا عَلى القَضاءِ عَلى عَدُوِّهِ .

كانَ لَدى مارْكْ أَنْتوني أَيْضًا عَدَدٌ مِنَ السُّفُنِ . ولَمّا انْضَمَّ إِلَيْها الأُسْطولُ المِصْرِيُّ . أَصْبَحَ أُسْطولُهُ أَكْبَرَ مِنْ أُسْطولِ أُوكْتافيوسَ . فأَبْحَرَ لِمُلاقاتِهِ واثِقًا مِنَ الاَنْتِصارِ .

كانَ مارْكْ أَنْتوني جُنْدِيًّا أَقْدَرَ مِنْ أُوكْتافيوسَ . ولَوْ حارَبَهُ بَرًّا لَكانَ عَلى الأَرْجَحِ تَغَلَّبَ عَلَيْهِ . ولكِنْ عِوَضًا عَنْ ذلِكَ . لاقاهُ بَحْرًا . ودُونَ رَوِيَّةٍ . بالقُرْبِ مِنْ أَكْتيومَ عَلى شاطِئِ اليونانِ الغَرْبِيِّ . وكانَ بِإِمْكانِهِ التَّغَلُّبُ عَلَيْهِ . لَوْلا أَنَّ كِلْيوباترا – الَّتي كانَتْ تُراقِبُ المَعْرَكَةَ مِنْ سَفينَتِها – أَبْحَرَتْ فَجْأَةً إِلى مِصْرَ . فلَحِقَ بِها أُسْطولُها . وانْهَزَمَ أَنْتوني وعادَ إِلى مِصْرَ مَعَ كِلْيوباترا .

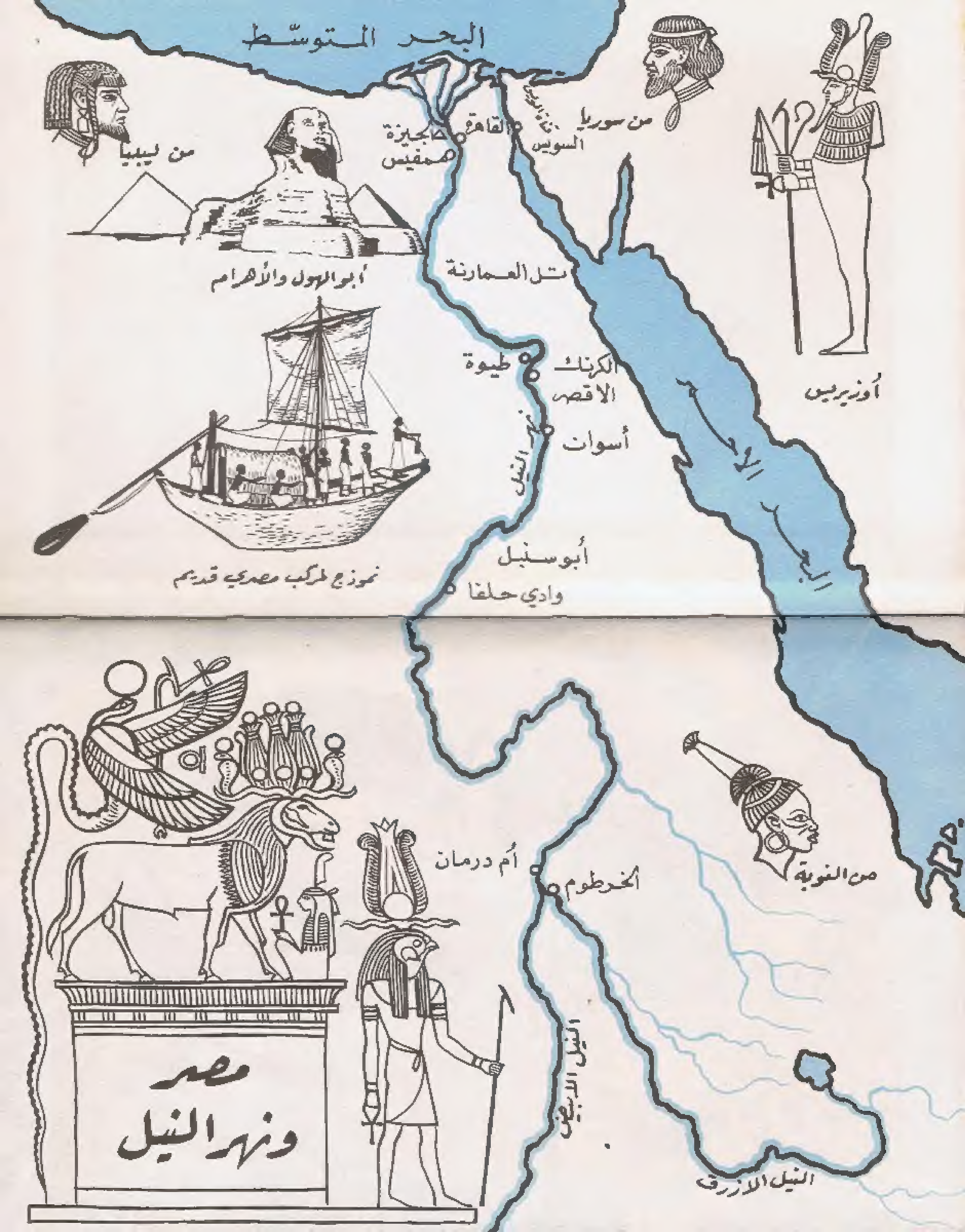


وتَبِعَ أُوكْتافيُوسُ أَنْتوني مُصَمِّمًا عَلى قَتْلِهِ وعَلى احْتِلالِ مِصْرَ . ومَعَ ذلِكَ كانَ بِاسْتِطاعَةِ أَنْتوني التَّغَلُّبُ عَلى خَصْمِهِ ، لَوْلا أَنَّ جَيْشَهُ فَقَدَ ثِقَتَهُ بِهِ عَلى أَثَرِ هُرُوبِهِ مِنْ مَعْرَكَةِ أَكْتيُوم .

أَمّا أَنْتوني ، فَقَدِ انْتَحَرَ ، بَعْدَ أَنْ رَأى قَضِيَّتَهُ خاسِرَةً ، ثُمَّ تَحَرَّكَ أُوكْتافيُوسَ نَحْوَ الإِسْكَنْدَرِيَّةِ ، حَيْثُ الْتَقى كِلْيُوباترا ، وهِيَ لا تَزالُ شابَّةً جَميلَةً ، تَنْعَمُ بِجَميعِ أَسْبابِ التَّرَفِ فِي البَلاطِ المِصْرِيِّ .

كانَتْ كِلْيُوباترا امْرَأَةً فاتِنَةً جِدًّا وحادَّةَ الذَّكاءِ . وقَدْ تَمَكَّنَتْ مِنْ إِقْناعِ يُوليُوس قَيْصَرَ ومارك أَنْتوني بِأَنْ يُحارِبا لِمَصْلَحَتِها . ولكِنَّ الوَضْعَ تَغَيَّرَ مَعَ أُوكْتافيُوسَ ، وعِنْدَما شَعَرَتْ أَنَّ في نِيَّتِهِ أَخْذَها أَسيرَةً إِلى رُوما انْتَحَرَتْ . وتَقُولُ الأُسْطُورَةُ إِنَّها عَرَّضَتْ نَفْسَها لِتَلْدَغَها أَفْعَى، أُحْضِرَتْ لَها في سَلَّةٍ مِنَ الفاكِهَةِ .

لَقَدْ دامَتْ مَدَنِيَّةُ مِصْرَ العَظيمَةُ خَمْسَةَ آلافِ سَنَةٍ . وقيلَ عَنْها : « إِنَّها أَضاءَتْ مِشْعَلَ المَدَنِيَّةِ في عُصُورٍ غارِقَةٍ فِي القِدَمِ ، يَصْعُبُ تَصَوُّرُها ، ثُمَّ انْتَقَلَ مِنْها ذلِكَ المِشْعَلُ إِلى الغَرْبِ » . تَذَكَّرْ إِذًا ، عِنْدَما تَرى تَقْويمًا ، أَنَّهُ وَليدُ فِكْرِ عالِمٍ مِصْرِيٍّ ، عاشَ مُنْذُ آلافِ السِّنينَ .


مصر
ونهر النيل
البحر المتوسّط
البحر الأحمر
من ليبيا
من سوريا
أوزيريس
أبو الهول والأهرام
الجيزة
ممفيس
القاهرة
قناة السويس
السويس
تل العمارنة
طيوة
الكرنك
الأقصر
أسوان
نهر النيل
أبو سنبل
وادي حلفا
نموذج لمركب مصري قديم
من النوبة
أم درمان
الخرطوم
النيل الأبيض
النيل الأزرق

## السِّلسلة التّاريخيّة

(١) جان دارك

(٢) ماركو بولو

(٣) الكابتن سكوت

(٤) نابوليونُ

(٥) كليوباترا ومِصْرُ القَديمةُ

(٦) تشارلز ديكنز

(٧) كريستوفر كولُمْبُسْ

(٨) الإِسْكَنْدَرُ الأَكْبَرُ

(٩) الحَضاراتُ الكُبْرى : مصر

Series 561 / Arabic

---